

٥ مقالة

فلسفة النبوة وأبعاد حياة الأنبياء الإجتماعية في نهج البلاغة

٥ الأستاذ المساعد الدكتور: حميد سراج جابر (جامعة البصرة كلية التربية)

٥ الانتباه: الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الآفاق» بالضرورة، بل تعبر عن رأي أصحابها

الخلق كشفة لا انه جهل ما اخفوه من مصون اسرارهم ومكنون ضمائرهم ولكن ليبلوهم احسن عملا فيكون الثواب جزاء والعقاب بواء».

وهنا يوضح الامام علي عليه السلام كيف ان الله بعث رسالة الى الناس لكي لا يتحيروا ويحتجوا بجهلهم لثواب الله وعقابه.

كما أن الامام علي عليه السلام لم ينس جانب الاختبار وهو جانب يرتبط في بعض الأوجه بالاحتجاج أو ألقاء الحجة على الخلق كما مرّ أعلاه، دون فرق بين اختبار الملائكة أو باقي العباد، اذ قال عليه السلام «... ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب «اني خالق بشرا منى طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس...».

ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى ارسل أرسل نبيه آدم عليه السلام لا اختبار الملائكة فقط، وانما نجده عليه السلام ذكر في مناسبة أخرى أنه تعالى أرسل آدم عليه السلام لاسباب أخرى ايضا اذ يقول «... فاهبطه بعد التوبة ليعمر ارضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده...».

أي أن الله سبحانه وتعالى ارسل النبي ادم عليه السلام ومن ثمّ إعمار الأرض وإقامة الحجة التي مرّ ذكرها سابقا على وجه العموم ايضا.

ولعل ما ذكره عليه السلام عن هدف الاختبار يتوضح أكثر بقوله «الآ ترون ان الله سبحانه اختبر الاولين من لدن ادم صلوات الله عليه الى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً ..» وهنا يبين الامام علي عليه السلام ان الله سبحانه وتعالى خلق الانبياء عليهم السلام لجعل الناس محل اختبار بهم، وتلك الأحجار التي لا تنفع ولا تضر وانما القضية معنوية تفوق المفهوم المادي الجامد.

وقد نجد أن الامام عليه السلام وكتحصيل حاصل يجمع الهدف من بعثة الانبياء بالتحذير من الدنيا بل وكشف عيوبها للخلق حتى لا يغتروا بها اذ قال عليه السلام «الحمد لله المعروف من غير رؤية والخالق من غير منصبه خلق الخلائق بقدرته واستعبد الارباب بعزته وساد العظماء بجوده وهو الذي اسكن الدنيا خلقه وبعث الى الجن والانس رسله ليكشفوا لهم عن غطاها وليحذروهم من ضرائها وليضربوا لهم امثالها وليبصروهم عيوبها ..». يبين الامام علي عليه السلام ان الله سبحانه وتعالى بعث الانبياء عليهم السلام ليهيئ بهم الخلق الى صراطه المستقيم.

وربما نجد ان الامام علي عليه السلام بما ذكره عن رسولنا محمد صلى الله عليه وآله قد اوضح الصورة أكثر عن الهدف والغاية والفلسفة من البعثة النبوية وذلك حينما قال: «... بلغ عن ربه معذرا، ونصح لأمته منذرا، ودعا الى الجنة مبشرا، وخوف من النار محذرا»، وقد يتبن الامام علي عليه السلام صفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وان الله بعثه يبشر المؤمنين بالجنة وينذر الكافرين النار وانه خلقه من احسن الخلق، مع التاكيد هنا على ان النبي صلى الله عليه وآله هو من خير البرية بصفاته التي تمتع بها.

وهناك اسباب أخرى للبعثة غير ان الامام عليه السلام اوجزها بواضح المفاهيم التي ذكرناها اذ رسم لها هيكليّة تكاد تكون متكاملة وواضحة المعالم وتتمحور حول عدة محاور:

أولها: الميل عن جادة الصواب بعبادة الشرك .

ثانيها: الاحتجاج على الناس بالندير المرسل من الله تعالى.

ثالثها: اختبار الخلق بالدعوة الى الله تعالى.

رابعها: انتشار الخلق من شبك الدنيا.

خامسها: تأهيل عقول الخلق حتى تأخذ دورها الذي تستحقّه والحصول على الآثار الناجمة عن هذا الامر.

سادسها: بيان اى الله تعالى لعباده ضرورة شكره تعالى عليها بفعل الصواب وعدم الشرك.

٥ **ثانياً: ابعاد حياة الانبياء الاجتماعية وانعكاسها على نبوتهم**

أُـ طهارة النسب والنشأة

لا شك ان طهارة نسب الانبياء واصلهم من الامور التي لم تختلف عليها المصادر لا سيما وان التواتر كان سيد الموقف في مجمل المعلومات الخاصة بهم، بيد أن ما يميّز ما طرحه الامام عليه السلام في نهج البلاغة هو أنه يمثل طرح العالم المطلع، فالامام عليه السلام ليس طارئا على نسب الانبياء وبيوتاتهم لذا نجده يصف هذا النسب بشكل متكامل اذ يقول «فاستودعهم في افضل مستودع واقرهم في خير مستقر تاسخنهم كرائم الاصلاح الى مطهرات الارحام كلما مضى منهم سلف قام منهم دين الله خلف» ويمكن فهم هذا الكلام والمطلب بسهولة لانه يعني بالجملة طهارة نسب الانبياء عليهم السلام الا ان هناك إحصاءات أخرى في الموضوع يمكن ان نستجليها بما يأتي:

١- أن الامام علي عليه السلام يشير الى سلسلة نبوة وليس الى انبياء من اصول مختلفة.

٢- أنه عليه السلام يذكر طهارة الآباء والامهات في آن واحد.

٣- أن هذا الكلام هو بمثابة رد صريح على من حاول تكفير اباء الرسول صلى الله عليه وآله.

٤- أن دين الانبياء هو واحد من ابراهيم عليه السلام الى الخاتم صلى الله عليه وآله وهو دين الاسلام.

وقد خصص الامام علي عليه السلام بعض الانبياء في بيان اصولهم وطهارة نسبهم، فقد قال عن اختيار ادم عليه السلام «...اختار ادم عليه السلام خيرة من خلقه...».

وهنا اشارة الى الاصطفاء، ولكن في الوقت نفسه ذكره بخير الخلق ومن ثمّ فإنّ ذلك يعود على الطهارة، وهذا ما أوضحه عليه السلام حينما خصص الرسول محمد صلى الله عليه وآله بالذكر اذ قال عنه «خير البرية طلالا، وانجها كهلاً واطهر المطهرين شيمة واجود المستمطرين ديمة» ولا يختلف اثنان على هذه الطهارة والسلسلة، او على الصفات التي ذكرها الامام عليه السلام عنه.

بل انه يؤكد ما ذكره عن الرسول صلى الله عليه وآله في مناسبة أخرى اذ يقول «استرته خير اسرة وشجرته خير شجرة اغصانها معتدلة وثمارها متهدلة مولده بمكة وهجرته بطيبة» وهذا توضيح وترجمة لكلامه السابق العام والخاص معا، أي انه صلى الله عليه وآله ولد في اسرة هي خير الاسر ومن شجرة هي خير الشجر وهنا اشارة الى موضع ولادة الرسول صلى الله عليه وآله وموضع هجرته وطهارة نسبه، ومن ثمّ فإنّ هناك صفة مشتركة في اصل الانبياء وهي رجوعهم الى اظهر الاصلا ب .

اما بخصوص نشأة الانبياء وطبيعة حياتهم فلعل صفة المعاناة والبساطة لمجمل حياتهم تكاد تتكرر في اغلب الصور التي ذكرها الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة عنهم، فحينما ذكر موسى عليه السلام قال: ولقد دخل موسى بن عمران ومعه اخوه هارون عليهم السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبايديهما العصى فشرطا له ان اسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: «الا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل فهلا القي عليهما اساوره من ذهب ...» ومن الطبيعي ان تكون صفة الانبياء هكذا حتى يكونوا ابغ في التأثير، ولانها طبيعة حياتهم فعلا.

كما يمكن ان نستنتج ان الانبياء بطبيعة حياتهم هذه اصبحوا قدوة للخلق وممثلين لصورة من ابرز صور الانبياء.

وقد اشار الامام عليه السلام الى هذا المفهوم ايضا عن نبي الله عيسى عليه السلام بقوله: «ولم تكن له زوجة فتقته ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع بذله دابته رجلاه وخادمه بداه...» يبين لنا الامام علي عليه السلام كيف كانت حياة النبي عيسى عليه السلام، وهي حياة متمسكة بالبساطة لكون هدفه الذي يروم تحقيقه هو هدف كبير .

وهناك أكثر من صورة ينقلها الامام علي عليه السلام من كلامه هذا عن النبي عيسى عليه السلام ابرزها ما يأتي:



يتناول هذا البحث بالدراسة فلسفة النبوة وابعاد حياة الانبياء الاجتماعية في فكر الإمام علي عليه السلام من خلال ما طرحه في نهج البلاغة إذ بين الإمام عليه السلام الأسباب والأهداف التي بعث الأنبياء من اجلها وقد طرح الفكرة بشكل عام وشكل خاص أيضاً، فربما نجده يتكلم عن الرسائل السماوية بمفهوم شمولي أو عن بعثة الأنبياء بشكل عام موضحاً هذا الموضوع، وربما نجده يخصص حينما يتكلم عن نبي من الأنبياء عليهم السلام أو يذكر معاناتهم مع أقوامهم في سبيل تحقيق أهداف النبوة .

وقد ذكر الإمام علي عليه السلام عدد من الأنبياء بهذا الخصوص ولم يذكر الكل الا ان الافكار المطروحة بما ظهر من العموميات شكلت منطلق جيد لفهم فلسفة النبوة في فكر الإمام عليه السلام.

الجانب الآخر الذي تناولته الدراسة هو جانب وثيق الصلة بالجانب الأول هو ابعاد حياة الأنبياء الاجتماعية إذ نجد إن الإمام علي عليه السلام قد ركز على مجموعة أمور بهذا الخصوص أهمها دراسة السلسلة التي انحدر منها هؤلاء الانبياء باعتبارهم قدوة للناس وباعتبار إن فلسفة النبوة تختار الأصلح ليكون كبير التأثير في نفوس الناس لهذا نجد الإمام علي عليه السلام يؤكد في أكثر من مناسبة في نهج البلاغة على هذه الامر وقد ضرب أمثلة متعددة عن الأنبياء.

أيضاً تناول البحث جانباً اجتماعياً آخر يقع في نفس الإطار ويرسم نفس الصورة وهو مظاهر حياتهم الاجتماعية وانعكاسها على نبوتهم، وقد رسم الإمام علي عليه السلام صوراً جميلة عن حياة عدد من الأنبياء تقاربت فيما بينها إلا إنها أوصلت نفس النتيجة عن حياة الأنبياء الاجتماعية وعن تواصلهم مع الناس .

واولى المظاهر تتجسد حينما ربط الإمام علي عليه السلام بين النبوة وبين عمل الأنبياء في معرض حديثه الذي هو ترغيب بالعمل بلا أدنى شك إذ ذكر أعمال عدد من الأنبياء التي كانت فيها عوامل مشتركة كثيرة أبرزها البساطة وقلة الوارد منها بما يحقق عدم الحاجة إلى الناس فقط وليس التملك أو البذخ، وأيضاً تنوعت الأمثلة التي ذكرها الإمام علي عليه السلام عن عمل الأنبياء والتي بُثّت في البحث وكل حسب موقعه.

ايضا من ضمن المظاهر ذكر الإمام علي عليه السلام كذلك طعام الانبياء إذ كانت الأمثلة التي وردت في نهج البلاغة تؤكد إن الأنبياء كانوا متشابهين في تناول الأطعمة فلا نجد من هو مختلف عنهم وان تباعد الزمن وإنما اشتركت صفات البساطة والقلة في الطعام عند جميع الأنبياء هذا فضلا عن موضوع زهدهم واخلاقهم وهي ابرز المظاهر التي وردت في هذا الاطار. وتكمن أهمية هذه الدراسة بأنها تطرح مفهوم النبوة في فكر الإمام علي عليه السلام وبالتالي فإن معايشة الإمام عليه السلام للنبوة الخاتمة ربما يضعنا أمام صورة حية مثالية وليس نقلية أو استنتاجيه تحتمل الصواب والخطأ، فضلا عن انه عليه السلام أراد من ذكر هذه الجوانب الاجتماعية للأنبياء الإشارة إلى أكثر من موضوع في أن واحد فهو يتكلم عن صفات الأنبياء وربطها بهدف النبوة العام وهو في الوقت نفسه يجعل هذا الذكر بمثابة الوعد للتخلق بأخلاق الأنبياء عليهم السلام.

وقد اعتمدت الدراسة على مجموعة كبيرة من المصادر إلى جانب نهج البلاغة واهم المصادر والمراجع شروح النهج المتعددة القديمة منها والحديثة .

٥ **أولاً: فلسفة النبوة**

لقد أوضح الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة الكثير من الامور الخاصة بالنبوة والدعوة ابتداء من اسبابها الى المظاهر الكثيرة المتعلقة بها، ولعل فلسفة هذه النبوة تمثل جزء رئيس مما ذكره الإمام علي عليه السلام، اذ طرق هذا المفهوم على مستوى العموم والخصوص في آن واحد، فتارة يذكر النبوة بشكل عام، وتارة أخرى يخصص نبي من الانبياء عليهم السلام بالذكر، بيد أن الاستنتاج من كلامه الخاص يمكن ان يفهم على مستوى العموم ايضا .

وفيما يخص الاطار العام فكتيرا ما نجد الإمام علي عليه السلام يذكر بعثة الانبياء في مناسبة معينة مبينا سببا أو أكثر لها وم ذلك قوله عليه السلام «واصطفى سبحانه من ولده انبياء اخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة امانتهم لَمَا بَدَل أكثر خلقه عهد الله اليهم فجعلوا حقه واتخذوا الانداد معه، واجتالّهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته فبعث فيهم رسله وواتر اليهم انبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منشي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثبّروا لهم دفائن العقول، ويروههم آيات المقدرة من سقف فوقهم مرفوع،ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تنفيهم...»، أي ان الله سبحانه وتعالى قد ارسل الانبياء من اجل ترك عبادة الاصنام التي لا تضر ولا تنفع لعبادة الاله الواحد الذي يستحق العبادة.

الا أن التفحص الدقيق لكلام الامام علي عليه السلام يضعنا امام جملة من الامور المهمة في اطار موضوعنا يمكن أن ندرجها بما يأتي:

١- أن اختيار الانبياء هو عبارة عن أصطفاء وليس الاختيار بمعناه الذي يحمل عنصري السلب والايجاب.

٢- أن الامام علي عليه السلام أراد الإشارة الى ان الانسان يولد على الفطرة، وانه اما يخالف عهده مع الله أو يحافظ عليه.

٣- أن الشرك بالله تعالى هو ابرز موجبات بعثة الانبياء وهو في الوقت نفسه له اشكال وصور ولا يقع تحت اطار واحد.

٤- ان من اهداف البعثة ايضا التذكير بنعم الله تعالى التي تناساها خلقه، وتقديم الحجة عليهم حتى لا يقولوا بعدم التبليغ.

٥- أن للأنبياء هدف تعليمي، أو هدف إثارة عقول الخلق لتأخذ دورها الذي رسمه الله تعالى لها. يذكر الامام علي عليه السلام هدف آخر للبعثة وهو القاء الحجة على الخلق بوساطة هؤلاء الانبياء، اذ قال عليه السلام «بعث اله رسله بما خضعهم به من وحيه وجعلهم حجة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الإعذار اليهم فدعاهم بلسان الصدق الى سبيل الحق، الا ان الله تعالى قد كشف